نفح الطيّب
للمقَّرى التلمسانى

شهرته المقَّرى ، أو المقْرى . على ما سنعرف فيما بعد ، ولقبه شهاب الدين ، وكنيته أبو العباس ، واسمه كاملا : أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العيّن بن محمد .

وقبل أن أعرض لحياته وعلمه ، أود أن أسترجع شيئاً من وقائع العصر الذى سبقه ومن الأحداث التى رافقته ، فالمرء ابن بيئته مهما تفرد ، ونتاج عصره سلباً وإيجاباً ، مهما سبقه مفكّراً ، أو قوم من أعوجاجه مصلحاً .

جاء المقرى مع نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، وهى فترة تمثل مرحلة الاحتضار فى الحضارة العربية والإسلامية ، ولقد جاء فى قمتها ، إذا كان ممكنا أن تكون للاحتضار قمة ، أما بدايتها فقد سبقته بسنين عديدة ، يمكن أن نقدرها بثلاثة قرون من الزمان ، وهى مرحلة تميزت بنضوب الإبداع العربى فى مجال الفكر والأدب بمفهومه التقليدى ، لكن الإبداع الشعبى لم يتوقف أبداً . كان كأى عمل شعبى يخلط بين الدر والصدف ، ويجمع الغث إلى السمين ، ولكنه أصيل دائماً ، ومتوهج أبداً ، وصادق فى كل الحالات . بلى ، فى هذه الفترة أعطت القاهرة آخر صورة لكتاب « ألف ليلة وليلة » أحد روائع الأدب العالمى دون جدال ، ووضع المصرى ابن دنيال ، المتوفى عام ١٣١٠ م ، أسس المسرح العربى الحديث ، حين جعل خيال الظل ، وهو فن ذو أصل صينى ، يدخل القصور ، ويرتفع إلى مستوى اللهو الجليل ، ويصبح قالباً يصب فيه الأدباء أفكارهم . وبدأ أدب الملاحم والسير والحكايات الشعبية يأخذ طريقه إلى التدوين ، فى أحجام تتجاوز آلاف الصفحات فدُوّنت « ألف ليلة وليلة » و « سيرة عنترة » وقصة الظاهر بيبرس ، وسيرة الهلالية ، وحكايات أخرى كثيرة .

فى الجانب السياسى سبق مجئ المقرّى إلى الحياة بقرن سقوط غرناطة فى يدى الملك فرناندو والملكة إيزابيل ، ومعها سقطت دولة الإسلام فى الأندلس ، ورأى

المقرّى وهو فى العشرين من عمره ، أو قريباً منها ، جموع الأندلسيين المسلمين تتدفق نحو المغرب العربى على امتداده ، بعد أن أصدر فيليب الثالث ملك إسبانيا القرار النهائى عام ١٦١٣ بطرد المسلمين جميعاً من الأندلس ، حتى لو كانوا قد استجابوا لأوامر محاكم التفتيش واعتنقوا الكاثوليكية هرباً من التعذيب الشديد .

وفى القرن نفسه حصل تطور سياسى هام ، فقد انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة ، وتحول ميزان الثقل السياسى من مصر إلى تركيا ، واكتسحت دولة العثمانيين الفتية العالم الإسلامى فى سرعة خاطفة ، وأصبحت إمبراطوريتها تمتد من تلمسان حتى فارس ، ودفعت بحدودها شمالا حتى أواسط أوربا ، وامتدت جنوباً حتى قلب إفريقية ، وملكت من جزر البحر الأبيض ردوس وقبرص .

وكانت تقوم داخل هذه الإمبراطورية الواسعة وخارجها وحدات إدارية متعددة ، ذات استقلال ذاتى يتسع أو يضيق ، لكن الثقافة العربية ظلت ، برغم تعدد الوحدات السياسية والإدارية ، متوحدة لم تتوزع ، متماسكة لم تتفتت ، فكان العلماء والطلاب يستطيعون أن ينتقلوا من بلد إلى بلد ، وأن يلتحقوا بجامعة أو بأخرى ، دون أية عوائق مادية أو أدبية . وكان الكتاب العربى يملك من حرية الحركة حدًّا لا قيود عليه ، ولم يكن العالم أو الطالب أو الكتاب حين ينتقل من وحدة إلى أخرى يُطالب بجواز سفر ، أو بعقد عمل ، أو بتصريح دخول . ومن ثَمَّ ظلت الروافد الثقافية التى يستقى منها الناس واحدة ، أيان عاشوا من الوطن العربى ، فجاء إبداعهم متقارباً ، وتولد بينهم إحساس بالإخاء عميقاً ، وإيمان عفوى بوحدة المصير .

على امتداد هذا العالم الإسلامى الواسع ، وفى أشد لحظات العالم العربى تخلفاً ، قُدِّر للقاهرة أن تكون واسطة العقد ، وأن تصبح حلقة الوصل بين شرق العالم العربى وغربه ، فمنذ أشرقت شمس الإسلام على هذا الجانب من الأرض ، وبدأ المسلمون فى المغرب يتجهون شرقاً لأداء فريضة الحج ، أو التماساً للثقافة فى مصادرها الأصلية ، خلال القرون الأولى لدولة الإسلام ، أو إرضاء لفضول علمى لا يقنع أصحابه بما يعرفون ، بعد أن ازدهرت المراكز الثقافية فى فاس وتلمسان وبجاية وقسنطينة والقيروان ، أو تجارة ، أو رغبة فى إذاعة علمهم هناك بين الناس ، أو طلباً لذلك كله . وهكذا أصبحت القاهرة محطًّا للذاهبين إلى مكة .

قدموا برًّا وعن طريق البحر ، يتوقف بعضهم بها أياماً تقصر أو تطول ثم يرحل حاجاً ليعود إليها من جديد عابراً أو مقيماً ، وكان لازدهار المذهب المالكى فى مصر ، ووجود خيرة تلاميذ الإمام مالك فيها ، وعالمية الأزهر فيما بعد ، وخزائن الفاطميين من الكتب ، أثر كبير فى جذب الناس إليها ، وعامل إغراء لا يقاوم . وكان هناك الأزهر بما يملك من بيوت للطلاب قائمة حتى يومنا هذا ، وتعرف بالأروقة ، وتؤدى إلى صحنه مباشرة ، وفيه تعقد حلقات الدرس طوال النهار ، وطرفاً من الليل ، وإلى جانب ذلك يهيئ السكن المجانى للأستاذ والتلميذ ، ويفتح أبوابه لطالب الدرس وللقادر على التدريس ، دون أى قيد من سن أو جنسية ، ويسخو فى العطاء فيجرى عليهم من الرزق رواتب متصلة ، وفى كل رواق مكتبة عامرة . كانت هناك أروقة السودان والمغاربة والشام والأتراك واليمن وجيبوتى وماليزيا والمدينة المنورة ، ورواق الصعايدة ، أى القادمون من جنوب مصر ، ورواق آخر خاص بالمكفوفين إلى أى بلد انتموا ، وأروقة أخرى كثيرة . وشهر رواق المغاربة بأن مكتبته تضم قدراً لا بأس به من المخطوطات النادرة ، ولعلماء من المغرب والأندلس بخاصة ، أقاموا هناك أساتذة فى أواخر حياتهم ، أو طلاباً فى سنى شبابهم ، وما تزال هذه الأروقة قائمة فى معظمها حتى يومنا هذا ، ولو أن العصر تخطاها ، فأنشئت المدن الجامعية لتحل مكانها ، وقامت مدينة البعوث الإسلامية لتتسع لعشرات الآلاف من الطلاب الوافدين .

جاء إلى القاهرة من المغرب العلامة **ابن خلدون** ، فشغل كرسى التاريخ فى الجامع الأزهر ، وأصبح قاضى المالكية ، وسفير السلطان برقوق إلى تيمورلنك ، ليفاوضه فى فك الحصار الذى ضربته جحافل جيش المغول على مدينة دمشق ، وبقى فى مصر عالماً جليل القدر إلى أن توفاه الله إلى جواره .

وجاءها أبو الفضل **محمد المشدالىَ** ، المتوفى عام ٦٨٤ هـ = ١٤٦٠ م ، من نوابغ علماء بجاية فى القرن الخامس عشر ، فشغل كرسى الفقه المالكى فى الجامع الأزهر ، عرض عليه أن يصبح قاضى القضاء فأبى ، وملأ الدنيا علماً ، وأثار من الإعجاب والتقدير بقدر ما أثار من النقاش والحسد .

وجاءها آخرون كثيرون ، قبلهما ومن بعد ، جاءها الرحالة الشهير **ابن جبير** ، وآثر الإسكندرية مقرًّا ، ودفن فيها جثمانًا ، واختارها مثله المؤرخ العظيم **أبو بكر**

الطرطوشى ، صاحب كتاب « سراج الملوك » ، وأبو العباس المرسى ، الصوفى الشهير ، والإمام الشاطبى ، وترك هؤلاء فى المدينة آثاراً لا تمحى ، فأضرحتهم معروفة وتزار ، وتحمل معالم المدينة وأحياؤها أسماءهم ، وليس من قبيل الصدفة أن أهل الإسكندرية ينطقون لفظ سيِّدى الذى يسبق هؤلاء الأعلام إجلالا على الطريقة المغربية فيقولون : « سِيدى » ، وأن شوارعها تحمل اسم « زنقة » على طريقة المغرب أيضاً ، وهو أمر تميزت به من بين سائر المدن المصرية .

وجاءها أيضاً ابن سعيد المغربى ، الشاعر والمؤرخ ، وأحد مؤلفى كتاب « المُغْرِب فى حلى المَغْرِب » ، وخص مصر بستة أجزاء من تاريخه الذى يضم خمسة عشر جزءاً . وبقى فيها الفليسوف الطبيب أبو الصلت أمية بن أبى الصلت عشرين عاماً ، محبوساً فى خزانة كتب ، وسمّى واحدا من مؤلفاته الرسالة المصرية ، وعاد إلى تونس بعلم وفير ، فبلغ حظًّا عالياً من الذيوع والشهرة والتقدير .

وكان المقرى موضع درسنا آخر الكبار الذين جاءوها عشية صحوة العالم العربى الحديث .

* * *

ينتسب المقّرى إلى مقرة ، وهى قرية من أعمال مقاطعة قسنطينة ، فى إقليم الزاب ، بالمغرب الأوسط ، قريباً من قلعة بنى حماد ، وقد ضبطت على وجهين ، أحدهما بفتح الميم وسكون القاف فتنطق « مَقْرَة » ، وهو اتجاه نجد له سنداً عند ابن مرزوق العالم التلمسانى ، فقد ألف كتاباً فى التعريف بجد مؤرخنا أسماه : « النوْر البدرى فى التعريف بالفقيه المقرى » والوجه الثانى بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة فتنطق « مَقَّرة » وهو اتجاه يدعمه صاحب اللقب نفسه . فقد كان يردده فى أحاديثه ، ونقله عنه أصحابه ، وتلاميذه ، وهو إذا لم نعتبر هذا ضرورة شعرية ، جاء فى مقدمة كتاب « أزهار الرياض » ، فى أبيات شعرية مطلعها :

فيقول أحمد ذو القصور المقَّرِىُّ إذا انتسب

ولا يمكن أن تقرأ كلمة المقّرى هنا إلا مشدّدة القاف ، وإلا اضطرب وزن البيت . ويبدو أن اسم المدينة كان ينطق على وجهين ، فلا ضرر ولا ضرار فى أن ينسب المرء إلى أيهما .

ينسب لمقرى إلى مقرة ، ولكنه لم يرها ، ولم يعش فيها ، هاجرت أسرته إلى تلمسان من زمن بعيد ، منذ القرن السادس الهجرى ، فى ظروف لا نعرف عنها شيئاً ، وكان المقرى موضع حديثنا يقول عن تلمسان : « بها وُلدت أنا وأبى وجدّى وجد جدى » .

فى تلمسان غرباء مهاجرون أوقف بنو المقرى جهدهم على العلم ، وضربوا فيه بسهم وافر ، واحتلوا بين رجاله مكانا مرموقاً ، فالجد الأعلى أبو عبد الله محمد كان قاضى الجماعة فى مدينة فاس على أيام السلطان أبى عنان المرينى ، وفيها تتلمذ عليه لسان الدين بن الخطيب أديب غرناطة ومؤرخها الكبير ، وعبد الرحمن بن خلدون ، صاحب المقدمة والتاريخ ، وألف أبو عبد الله كتابى : « لقواعد » و « إقامة المريدين » ، وتوفى فى منصبه هذا عام ٧٥٩ هـ = ١٣٥٩ م ، ونقل رفاته إلى تلمسان مسقط رأسه ، وظل أبو عثمان بن أحمد المقرى ، عم أبى العباس المقرى صاحب النفح ، مفتياً لتلمسان على امتداد ستين عاماً ، وخطيباً لمسجدها الأعظم مدة خمسة وأربعين عاماً ، وتوفى بعد عام ١٠١١ هـ = ١٦٠٣ م .

وقد اشتهرت أسرة المقرى بالجاه العريض ، لأنها عربية قرشية لها بين العامة مكان مرموق ، وبالثراء الواسع لأن أفرادها إلى جانب العلم كان يعملون بالتجارة بين تلمسان وسجلماسة وبلاد السودان . لكن اضطراب الأحوال السياسية ، وانعدام الأمن فى طرق المواصلات ، أصاب تجارتهم بالبوار الشديد ، وذهب بجل ثروتهم ، وحين جاء أبو العباس المقرى ، لم يكن بقى للأسرة مما كان لها غير ستر الله .

ولكننا لا نعرف شيئاً عن أبيه ، وقد أغفلت كتب التراجم الحديث عنه ، إلا إشارة عارضة وردت فى كتاب « البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » ، لابن مريم الشريف التلمسانى ، يفهم منها أنه كان فقيراً وصالحاً وتقيًّا ، ونعلم أيضاً أنه كان شاذلى الطريقة وقد ضن عليه التاريخ حتى بذكر وفاته ، ولم يعرض له الابن إلا نادراً ، مع أنه كان زهوًّا بذكر أقربائه ، مطنباً فى التعريف بآثرهم ، ولا يشير إليه فى كتابه الشهير « نفح الطيب » غير مرة واحدة ، عندما تحدث عن نسبه ، ودون أن يريد الأمر توضيحاً : أترى كان الأمر متعمداً ، لأشياء نقمها الابن من

أبيه ، أو لأنه كان عارياً من فضل يلتحف به ؟ أكاد أرجح الأولى ، لأن أبا العباس المقرى كان متواصل الثناء ، كثير الترحم على عمه سعيد .

ولُد المقرى فى تلمسان ، قريباً من نهاية القرن العاشر الهجرى تقريبا ، وقبل أعوام من نهاية القرن السادس عشر للميلاد ، وفيها تلقى تعليمه ، حفظ القرآن ، ودرس الفقه المالكى ، وتذاكر آداب العرب ، وقرأ على عمه المفتى صحيح البخارى ، وكتب الحديث الستة ، وما من شك فى أنه تردد على أساتذة كبار آخرين ، فقد كانت تلمسان حتى عصره من أهم المراكز الدينية بالمغرب ، لكن الفتى الطموح ما لبث أن استشرف آفاقاً جديدة ، فرنا ببصره إلى مدينة فاس ، أشهر المراكز العلمية قرباً من مسقط رأسه ، ولأسرته بها صلة ، فمن قبل كان جده فيها كبيراً للقضاة ، والمدينة عاصمة المغرب العلمية والدينية ، ففيها جامعة القرويين ، وبها لاذ جمع غفير من جلة علماء الأندلس المهاجرة ، منذ ثورة فقهاء الأندلس ضد الحكم الأول فى قرطبة . فيما يعرف تاريخياً باسم « فتنة الربض » ، وبها مكتبات عامرة ، وتتمتع بشهرة عالمية مستفيضة ، ولابد أن ذلك كله شدّ إليها انتباه الفتى الذكى ، فرحل إليها للمرة الأولى فى عام ١٠٠٩ هـ = ١٦٠٠ م ، ولم يبق بها هذه المرة طويلا ، فلم تتجاوز إقامته عاماً وبعض العام ، وعاد إليها فى زيارة خاطفة بعد عامين ، ثم جاءها فى ١٠١٣ هـ ليبقى فيها أربعة عشر عاماً متوالية ، تدرج خلالها من طالب نابه إلى أستاذ متمكن ، يتولى فى سن فتية الإمامة والخطابة فى جامع القرويين الشهير ، مقر الجامعة ، وأكبر مسجد فى المدينة ، ويسكن فى دار ابن عباد الملاصقة للجامع ، وكانت مخصصة لإمامه ، ومازالت قائمة حتى يومنا ، وزرتها مراراً أثناء ترددى على مدينة فاس زائراً ، ثم تنتهى إليه الفتوى ، فيتولى منصب الإفتاء ويستمر فيه إلى أن يترك المدينة عام ١٠٢٧ هـ = ١٦١٧ م .

فى أواخر شهر رمضان من هذا العام اعتزم الرحلة إلى المشرق « تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف » فيما يقول ، ولم يفصح لنا عن الظروف التى دعته إلى هذه الرحلة ، واكتفى بأن يشير إليها فى إيماءات ملمحة ، نفهم منها أنه اضطر إليها كارهاً : « لما قضى الملك الذى ليس لعباده فى أحكامه تعقيب أورد ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو رد ، برحلتى من بلادى ، ونقلتى عن محل طارفى

وتلادى ، بفطر المغرب الأقصى الذى تمت محاسنه ، لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً ، وطما به بحر الأهوال فاستعملت شعراء العبث فى كامل رونقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووقصاً » .

لقد تحاشى المقرى أن يتحدث عن الظروف التى أرغمته على الرحيل . وهى ظروف فيما يبدو لى كانت تتصل بالواقع السياسى لمملكة فاس يومئذ ، لقد تولى مولاى زيدان المُلْك دون أخويه المأمون وأبى فارس عام ١٠١٢ هـ ، فنشبت بينهم حروب متصلة ، وتميز عهدهم بالاضطراب والفتن والدسائس ، وتعرضت فاس لهجوم البدو وعبثهم ، وكلها أحداث قاسية على العالِم ، وعلى الغريب من العلماء أشد قسوة .

سلك المقرى طريق البحر إلى مصر ، ولا يشير فيما هو منشور من آثاره إلى الثغر الذى أقلع منه ، وأكاد أتصور أنه ثغر طنجة ، إذ ليس فى إشارته ما يلمح إلى أنه عاد إلى تلمسان مرة أخرى ، وإنما يقول : « ثم جذبنا السير فى البر أياماً ، ونأينا عن الأوطان التى أطنبنا فى الحديث حبًّا لها وهياماً ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياماً ، إلى أن ركبنا البحر » .

* * *

وصل المقرى إلى الإسكندرية فى أواخر عام ١٠٢٧ هـ ، أى بعد شهرين من بدء رحلته ، تزيد أو تنقص قليلا ، وقد عانى كثيراً من أهوال البحر ومزعجاته ، ولم تكن أمواجه الضارية وحدها مبعث الفزع ، وإنما الأخطار المحتملة من هجوم القراصنة ، فقد كان البحر الأبيض فى تلك المرحلة مسرحاً لصراع عنيف بين قرصانة ، مسلمين ومسيحيين ، وخلّف لنا وصفاً أدبيًّا شيقاً لما مر به ، يقول : « إلى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مما يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه ، فكم استقبلنا أمواجه بوجوهٍ بواسر ، وطارت إليا من شراعه عقبان كواسر » . ويصف الموج بأنه « يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو قد شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف ولا تكاد تتفق » .

ويشير إلى الدور الذى كانت تلعبه جزيرة مالطة ، وقد اتخذها فرسان القديس يوحنا ، متحالفين مع الإسبان ، منطلِقاً لمهاجمة السفن الإسلامية وتدميرها : « وقد

نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء ، وذلك السفين ، ومن فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدو ، فى الرواح والغدو ، لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمرّ الله سبحانه من فيها ، وذهب بفتحها عن المسلمين الكرب ، لا سيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها أنه أمدّ بتأييد إلهى ومعونة ، فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقلّ من ركبه فأفلت من كيدها ونجا » .

وبلغت الرحلة غايتها ، وأدع المقرى نفسه يصف لحظة الوصول آماً مطمئنًّا ، بعد أن وصف لنا الرحلة خائفاً مضطرباً : « ثم وصلنا بعد خوض بحر ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجوْب فياف مجاهل ، يضل فيها القطا عن المناهل ، إلى مصر المحروسة ، فشفينا برؤيتها من الأوجاع ، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والأسجاع ، وتمثلنا فى بدائعها التى لا نستوفيها ، مـ يقول ابن ناهض فيها :

شاطئُ مصر جنة ما مثلها فى بلد
لا سيما مذ زخرفت بنيلها المطرد
وللرياح فوقة سوابغ من زرد
..... إلى آخر القصيدة .

بقى المقرى فى القاهرة قريباً من عام ، وذُهل بما رأى ، برغم أنه جاءها وهى على حال من العفاء والتدهور بالغة فقبل ذلك بقرن ، غداة الفتح العثمانى ، نقل السلطان سليم الأول ، ودفعة واحدة ، كل الحرفيين والمهنيين والفنانين ، ورجال العلم والقانون ، ونفائس المخطوطات ، إلى الآستانة ، ليجعل عاصمة الخلافة الجديدة فى مستوى القاهرة أولا ، وليأمن المثقفين ثانياً ، فترك ذلك كله أثره فى حياة المدينة العريقة لأعوام طويلة ، ومع ذلك ، أُخذ المقرى بحركة المجتمع المصرى ، وبهرته محاسن المدينة ، وأعجب أيما إعجاب بما يمكن أن نسميه « استمرار الحياة » . رأى الناس ، برغم كل المصائب يقبلون على عملهم فى جد ، ويمارسونه فى حب ، ويكملونه فى إتقان ، تضطرب الحياة من حولهم فيخبون فيها ويضعون ، ويأخذون من صخبها بحظ وافر ، لكن طاقتهم قادرة دائماً على تمثّل الخير ، وعزل الشر ، وتجريده من قواه ، ثم يعاودون سيرتهم من جديد ، فى

هدوء منتظم ، وتدفق خلاق ، وكأن شيئاً لم يجر بالأمس .

بعدما يزيد على عام فى القاهرة تهيأ « للمهم الأعظم ، والمقصد الأكبر » ، وهو رؤية الحرمين الشريفين ، فسافر إلى الحجاز معتمراً ، وعن طريق البحر أيضاً ، وكان تأثره بالمشاهد الدينية التى زارها عميقاً بالغاً ، وبعد أن أكمل العمرة لبث هناك حتى يحل موسم الحج ، فأحرم به ، وحين أحل مما أحرم به انتوى الإقامة هناك ، فحال من دون ذلك حائل لم يفصح عنه ، ولا ألمح إليه ، ولعله أن يكون اقتصاديًّا بحتاً ، فعاد إلى مصر من جديد فى شهر محرم من عام ١٠٢٩ هـ .

* * *

ولم يكد يعود من حجه الأول حتى ارتحل لزيارة بيت المقدس ، ثالث الحرمين ، وأولى القبلتين ، وفى عودته هذه تزوج مصرية من الأسرة الوفائية ، وهى من أعرق أسر القاهرة محتداً ، بمقاييس ذلك العصر وكل عصر ، فقد تميز البيت الوفائى بالكرم والعلم والتصوف ، وكانت فيهم نقابة الأشراف ، ولهم طريقة صوفية تنسب إليهم ، ومازالت الطريقة قائمة وبيتهم ممتداً ، وإن أصاب كليهما ما أصاب الحياة فى مصر ، وذلك يعنى أن المقرى احتل من المجتمع القاهرى مكانة علمية رفيعة فى زمن يسير ، مكانة تتيح له أن يصهر فى بيت مجيد ، وهو رجل غريب لامال ولا جاه .

اتخذ المقرى من القاهرة منطلقاً لما حولها ، فكرر الرحلة إلى الحجاز ، وحج واعتمر مرات تبلغ الخمس ، وجاور فى مكة ، ودرس فى الحرم المكى ، وتوقف فى المدينة المنورة وأملى فى الروضة النبوية بعض دروسه فى الحديث ، قريباً من مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو بمرأى منه ومسمع على حدّ تعبيره ، وفى القاهرة اتخذ مكانه فى الأزهر أستاذاً مرموقاً ، يقول : « ثم أبت إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور ، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور » :

كان طموح المقرى العالم كبيراً ، فعاد إلى بيت المقدس ثانية ، فى رجب من عام ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ م ، وأقام فيه قريباً من خمسة وعشرين يوماً ، ألقى خلالها عدة دروس بالمسجد الأقصى ، وزار مقام الخليل ، ومهابط الأنبياء ، وفى بيت المقدس فكر أن يزور دمشق ، « حيث المشاهد المكرمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغناء والحديقة ، والمكارم التى يبارى فيها المرء شائنه وصديقه » .

دخل المقرى دمشق فى أوائل شعبان ، فأنزلته المغاربة فى مكان لا يليق به ، على تعبير مؤلف كتاب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » ، فرسل إليه أحمد شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية فاستقر بها ، واتصل بكثير من أدباء المدينة وأعيانها ، وربطته صلة ود بالشيخ عبد الرحمن عماد الدين مفتى المدينة وكان قد تعرف عليه بمكة أيام الحج ، ووثق صلته بأحمد شاهين من الأعيان الأدباء ، ووجد من الجميع احتراماً وإجلالا بالغين ، وأقام فى دمشق دون الأربعين يوماً ، تعرف خلالها على المدينة وما حولها ، واستهوته مناظرها الطبيعية ، فردته إلى ما فى وطنه ، وذكرته بما كان عليه الأندلس ، وأثارت فى نفسه ذكريات عزيزة ، وأشجاناً آسية ، فأطنب فى وصف ما رأى من حدائق ، وأشاد بما طوقه الناس من جمائل ، وكان امتنانه العلمى فوق ذلك وأبلغ منه .

كان حديثه مع الناس عن الأندلس ، تاريخه ورجاله ، مأساته وضياعه ، مطنباً مستفيضاً ، ومؤثراً مثيراً . وكان كلامه عن آخر شعلة توهجت فيه ، وزيره وشاعره ومؤرخه لسان الدين بن الخطيب ، متدفقاً لا ينقطع ، طليًّا لا يسئم ، يسرد من شعره ونثره ما توحى به المناسبة وتقتضيه ، وتميل إليه الطباع وترتضيه ، وأراد أن يكتب لهم ما قص عنه وتحدث به ، فاقترح عليه أحمد الشاهينى أن يتصدى للتعريف بلسان الدين فى مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه ، وبدائعه وصناعته ووقائعه ، مع ملوك عصره وعلمائه ، فأجاب تواضعاً منه بأن الغرض غير سهل من جهات عديدة ، أولها – وأترك الكلام له – « قصورى عن تحمل تلك الأعباء الشديدة ، إذ لا يوفى بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف السديدة ، وثانيها عدم تيسر الكتب المستعان بها على المرام لأنى خلفتها بالمغرب أكثرها فى المشرق كعنقاء مغرب ، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة ، الجالبة لفكر غاية الكربة » وشدّد الناس عليه فى الطلب ، وألحوا فى التنفيذ ، فوعدهم بالشروع فى المطلب عند الوصول إلى القاهرة المصرية .

رحل المقرى عن دمشق فى الخامس من شوال ١٠٣٧ هـ ، وتوجه لى مصر ، وفى القاهرة عكف على ترتيب مادته ، وجمع شوارد أفكاره ، ليفى بما وعد به أهل الشام من تأليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب ، لكن أموره لم تجر على نحو ما أحب ، فوقف به مركب العزم عن إتمامه ، واختلفت عليه أحوال لدهر نفعاً

ودفعا ، ومنحاً ومنعاً ، فيما يقول عن نفسه ، وألمت بأفكاره ساهراً يكتب أموراً أما خطرت له على بال . ولم يتحدث عن معوقاته فى هذه الفترة ، كما أن معلوماتنا عن حياته اليومية فى القاهرة تكاد تكون معدومة ، ولكنى فيما درست من حال الرجل أردها إلى أمرين ، تحدث عن واحد منهما تلميحاً ، وتصريحاً ، وأطبق صامتاً على الآخر فلم يشر إليه من قريب أو بعيد .

أما أولى السببين ، فإن التشابه بين طبيعة الشام وبلده حرّكت فى نفسه حنيناً جارفاً إلى وطنه ، فبدأ يستشعر الغربة بعنف ، ويراها ثقلا معوقاً ، يقول وسط صفحات طوال حبّرها عن جنان الشام واصفاً ، وعن أهله ممتنا : « وليت شعرى علام يحسد من أبدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب إشارته ، وأنهل بالدموع نواءه ، وقلّل أضواءه ، وكثّر علله وأدواءه ، وغير عند التأمل رواءه ، وثنى عن المأمول عنانه ، وأرهف بالخمول سنانه » :

وثانى الأمرين أن الرجل لم يكن موفقاً فى حياته الزوجية ، لكنه لم يرد وهو العالم الأديب ذو الخلق الأريب ، أن يجعل من حياته الخاصة مادة للقصص أو السمر ، فصانها عن المشاركة ، ونأى بها عن اللجج ، وطوى نفسه على صبر جميل ، أمسك زوجه بمعروف ، فلما استحالت معها الحياة سرّحها بإحسان ، ووضع الطلاق حداً لحياته المشتركة ، ومن كانت هذه حاله لا يهدأ له بال .

غير أن إلحاح صديقه أحمد شاهين لم يتوقف ، فكاتبه يستنجزه ما وعد ، فعاد المقرى يتم ما بدأ ، ولعل ذلك كان منه بعد إنفصاله عن زوجه ، واستطاع أن يتم كتابه عن ابن الخطيب فى صورته الأولى خلال بضعة أشهر ، وسماه : « عرف الطيب ، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » : تناول فيه حياة ابن الخطيب وصفاته وثقافته وآثاره . وجانباً من نظمه ونثره . ثم راجعه مرة أخرى بعد أن خلص لنفسه وعلمه ، فأراد أن يضع له ما يكون كالمقدمة ، يأتى فيها على ذكر الأندلس ، تاريخه وأحداثه ورجاله ، ومدنه والوافدين إليه ، والراحلين عنه ، وما تميّز به وأثره عنه ، واستغرقت كتابة المقدمة زمناً أطول مما استغرقته كتابه الأصل . فأتمها فى عام وبضعة أشهر ، واستطالت حتى ضارعت ما أريد لها أن تكون مقدمة له ، حينئذ فكر المقرى ، فى أن يختار عنواناً جديداً يكون مطابقاً لمحتوى الكتاب ، فكان هذا الذى انتهى إلينا : « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر

وزيرها لسان الدين بن الخطيب » . وكان انتهاؤه منه ، كما تشير إليه خاتمة الكتاب ، فى آخر ذى الحجة عام ١٠٣٩ هـ = أغسطس ١٦٣٠ م ، وكان المقرى يزمع أن يحمل مؤلفه عائداً به إلى دمشق ، ليطلع أصدقاءه ومن رغبه فى تأليفه عليه ، ولكن صحته اعتلت ، ومالبث أن وافاه الأجل المحتوم فى جمادى الآخرة عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م ، ودفن فى قرافة المجاورين قريباً من الجامع الأزهر ، إلى جانب صفوة من علماء الأرض جاءوا القاهرة ، زائرين أو دارسين ، رحالة أو مدرسين ، آخى بينهم العلم ، ووحد بينهم الدين ، وجمعت بينهم القاهرة .

ألف المقرى كتباً كثيرة ، بعضها ذو أهمية كبرى ، مثل كتاب « أزهر الرياض فى أخبار القاضى عياض » ، وكتبه حين كان بفاس استجابة لطلب جماعة من تلمسان رغبوا إليه أن يؤلف لهم كتاباً فى حياة عياض بن موسى ، وهو عالم جليل ، ومحدِّث حافظ ، ولد فى سبتة ، وعاش فى غرناطة ، وتوفى فى مراكش (عام ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) وجاء شاملا للحياة العلمية فى المغرب ، وترجم لكثير من علمائه ، وعرض لبعض أحداث الأندلس الأخيرة التى صاحبت أو تلت سقوط مملكة غرناطة ، وهو صنو كتاب « نفح الطيب » ، أهمية مادة ، وجلال قدر . وقد طبع الجزء الأول من « أزهار الرياض » ، فى المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م . وقامت بطبعه إذ ذاك الشركة التونسية لطبع الكتب العربية ، التى لم تعمر طويلا . « وهذه الطبعة محرفة تحريفاً مخجلا ، وخالية من التعاليق ، وليس فيها مقدمة تعطينا فكرة عن المخطوطات المعتمدة ، وعن كيفية التحقيق »[1] . ومن بعد قام على تحقيقه فى القاهرة الأستاذ إبراهيم الإبيارى وآخرون ، لحساب بيت المغرب العربى فى القاهرة ، وكان المركز الذى يوجه منه زعماء المغرب حركات التحرير فى بلادهم ، سياسية وثقافية ، وجاء تحقيقهم دقيقاً وافياً ، يمتاز بالتعاليق القيمة ، والفهارس المرشدة ، وصدرت منه ثلاثة أجزاء فى القاهرة أعوام ١٩٣٩ م ، و ١٩٤٠ ، و ١٩٤٢ م . وظلت بقيته ، وعثر على مخطوطتها فى المغرب تنتظر من يقوم على تحقيقها ونشرها .

وكتاب « روضة الآس ، العاطر الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » ، وفيه ترجم لعدد من علماء المغرب لقيهم أو تلقى عنهم ، أو عاشوا على

(١) الحبيب الجنحانى : المقرى صاحب نفح الطيب ، ص ٨٣ ، تونس ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م .

أيامه ، وقد توقف الحبيب الجنحانى فيما يتصل بوجود مخطوطة الكتاب »[١] ، وأسف محمد عبد الغنى حسن[٢] لأنها فقدت ، والحق أن المخطوطة موجودة ، وعثر عليها ، وقام عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية بنشر الكتاب فى الرباط .

وله مؤلفات أخرى محدودة الأهمية ، أو قليلة النفع والفائدة فى التصوف ، أو التوحيد ، أو النحو ، وغيرها .

أما الكتاب الجليل الفائدة ، والذى دخل به ومعه التاريخ ، فهو كتاب « نفح الطيب » ، وهو موضع حديثنا على التفصيل .

* * *

كان كتاب « النفح » آخر ما ألف المقرى من الكتب فيما أرى ، وعلى نحو ما أشرنا من قبل ، فقد توفى بعد إتمامه بقليل . والكتاب ينقسم إلى قسمين كبيرين ، خص أولهما للتعريف بالأندلس ، تاريخاً وطبيعة وجغرافية ، بشراً وأرضاً ومدناً ، وكسره على ثمانية أبواب :

الباب الأول : فى وصف جزيرة الأندلس ، ومناخها ، وبلدانها .
والباب الثانى : فى فتح العرب جزيرة الأندلس .
والباب الثالث : فى عز الإسلام بالأندلس .
والباب الرابع : فى ذكر قرطبة ، وجامعها الأموى ، وصورها البديعة الصنعة ، وحدائقها وأرباضها .
والباب الخامس : فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق .
والباب السادس : فى ذكر الوافدين على الأندلس من أهل المشرق .
والباب السابع : : فى فضائل الأندلس .
والباب الثامن : عرض فيه لتعاون الأوربيين على اغتصاب الأندلس ، وتخاذل المسلمين عن معاونة أهليه .

(١ المصدر السابق ، صفحة ٩٦ .
(٢ محمد عبد اللغنى حسن : المقرى صاحب نفح الطيب ، ص ١٨١ ، القاهرة ١٩٦٦ .

وخص القسم الثانى للتعريف بابن الخطيب ، موطنه وأسرته ، صباه وشبابه ، شيوخه وأساتذته ، خطاه نحو المجد وتوهجه ، محنه وأحداثه حتى وفاته ، وأورد جانباً كبيراً من رسائله ونظمه وشعره ، وأحصى مؤلفاته وتتبع تلاميذه وأولاده ووصاياه . وكسر هذا القسم على ثمانية أبواب أيضاً .

الباب الأول : فى ذكر أولية لسان الدين بن الخطيب .
الباب الثانى : فى ذكر نشأته وترقيه ووزراته ، وسعادته وشقائه .
الباب الثالث : فى ذكر شيوخه .
الباب الرابع : فى مخاطبات الملوك والأكابر له .
الباب الخامس : فى إيراد جملة من نثره وأزجاله وموشحاته .
الباب السادس : فى مصنفاته .
الباب السابع : فى ذكر بعض تلاميذه .
الباب الثامن : فى ذكر أولاده .

* * *

شغل الكتاب بتقسيم المؤلف نفسه أربعة مجلدات ضخام ، يجرى فيها المقرى على قاعدة الاستطراد ، حسب ما تسوقه إليه شجون الكلام والرواية ، ينتقل من التاريخ إلى الشعر ، ومن الرسائل إلى الفقه ، ويترجم لطبيب بجوار محدث ، ولأمير بجانب آخر من غمار الناس ، يعلق أحياناً ، ويوازن أحياناً أخرى ، وينثر ذكرياته دائماً ، ولا يلتزم نهجاً معيناً فى النقل ، قد يأتى برسالة على كاملها مهما طالت ، كرسالة الشقندى فى مفاخرته بأهل الأندلس مثلا ، وقد يبترها حتى ولو كانت فى الأصل سطوراً مختصرة ، وقد يكرر القصة والرواية فى أكثر من موضع ، فيضطرب به النقل ، وتتدافع الأخبار فيما بينها ، ذلك أن الرجل لم يكن فى الكتاب مؤرخاً ولا ناقداً ولا محققاً ، ولا زعم لنفسه ذلك ، فكان يورد الأخبار كما سمعها أو قرأها فإذا كان بوسعه أن يضيف إليها شيئاً من ذاته أو علمه مقوماً أو مصححاً أو معلقاً فعل ، وإلا جاء بها على عهدة أصحابها دون تمحيص . وبرغم ذلك فإن شخصيته لم تختف من الكتاب ، وإنما نجدها وراء كل سطر فيه ، وتحس وأنت تقرأ ما كتب أو نقل بدفء الروح الذى يكتب به عن الأندلس ، معجباً بحضارته ، وآسيا لفقده ، ودامع القلب دائماً لما أصاب المسلمين فيه .

كان المقرى فى كتاب « نفح الطيب » ناقلاً ومصنفاً ، وندين له اليوم بنصوص بالغة الأهمية ضاعت أصولها وبقى لنا منها ما دوّن هو فحسب ، ويضم « النفح » إشارات إلى مئات من الكتب أفاد منها المؤلف ، ونقل عنها ، ولا نعرف لها اليوم وجوداً تمير ما نقل ، ونستطيع أن نقدر أية كارثة أصابت الثقافة العربية بعامة ، والأندلسية بخاصة حين نعرف ضياع هذا القدر الهائل من المؤلفات فى فترة من الزمن لا تتجاوز الثلثمائة عام . وأن نتصور ماذا كان يمكن أن يصبح عليه حال الدراسات الأندلسية ، نقصاً وعقماً وتشويهاً ، لو لم يقدر لها أن يؤلف فيها المقرى هذا الكتاب .

* * *

كان العلماء والأدباء ، فى عصر المقرى وما سبقه ، يدورون حول أنفسهم اختاروا الدعة ، وقعدوا عن المخاطرة ، وآثروا السلامة ، فأعرضوا ، أو عجزوا ، عن الإبداع ، وأوقفوا همهم على كتاب يختصرونه ، أو مختصر يشرحونه ، أو شرح يعلقون عليه ، والشرح والتعليق مفيد ، أما الاختصار فجناية على العلم وعلى منهج المؤلف ، وعلى طابع العصر الذى ألف فيه الكتاب ، حتى حين يضيف إليه المختصر مُوضحاً ، أو مستطرداً ، أو مكمِّلا . وقد كانت شهرة نفح الطيب واسعة . واهتمام الناس به كبيراً ، فشرق وغرب فى زمن يسير ، وبدأ العلماء يعكفون عليه مختصرين ومرتبين ، ونعرف عدداً من هذه المختصرات .

اختصره أبو الحجاج يوسف بكر محمد ، الشهير بابن الوكيل الميلوى ، وسمى مختصره : « تغريد العندليب على غصن الأندلس الرطيب » ، ورتبه على ثمانية أبواب وخاتمة . عرف فيها بالمقرى ، وأضاف إلى الكتاب بعض الفوائد مما وقف عليه فى بعض الكتب ، وخصوصاً ماله تعلق بالمغرب الأقصى ، وألفه استجابة لرغبة حسين أفندى ابن إبراهيم ، من أشراف مصر ، وفرغ من تحريره يوم الأحد المبارك سادس شهر ذى القعدة الحرام سنة ١١١٤ هـ (١٧٠٢ م) ، ويقع فى مجلد ضخم ، ويملك الأستاذ محمد الهادى المنونى نسخة منه .

واختصره أبو الحسن على بن أحمد الحريشى الفاسى نزيل المدينة المنورة ، المتوفى سنة ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ م ، ويقع هذا المختصر فى مجلد ، ويوجد بالخزينة الزيدانية فى مكناس .

واختصره أبو العباس أحمد بن محمد الرهونى التطوانى ، وأسمى مختصره : « اللؤلؤ المصيب من نفح الطيب » ، وطبع الجزء الأول منه فى تطوان عام ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م ، ولكن الطبع توقف عند هذا الجزء ، فلم تطبع بقيته .

واختصره الشيخ أحمد دحلان ، المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م . ويقول العالم الجليل عبد السلام بن سودة ، صاحب كتاب « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » ، « وقد بلغنى أنه طبع أخيراً . ولكن دون أن يشير إلى تاريخ الطبع أو مكانه »[1] .

واختصره الشيخ أحمد الجزائرى ، وتوجد نسخة من مخطوطته فى المتحف البريطانى أشار إليها جرجى زيدان ، فى الجزء الثالث من كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

* * *

اختار المقرى القاهرة مقاماً ، وفيها لقى ربه ، وبين ترابها ثوى جثمانه ، ما بقيت الأرض ومن عليها . وكانت القاهرة من جانبها حفية به ، فما إن بدأت نهضتها الحديثة ، ممثلة فى المطبعة والنشر ، حتى كان نفح الطيب من أوائل الكتب التى طبعت فى مطبعة بولاق الشهيرة ، فجاء فى أربعة أجزاء كبيرة ، وصدر عام ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م ، وقام على تصحيح هذه الطبعة الشيخ محمد بن عبد الرحمن ، المشهور بقطة العدوى ، وهى خالية من الأخطاء المطبعية ، ولكنها كثيرة التصحيف فيما يتصل بالأسماء الأندلسية والمغربية ، ولم تكن الحياة الثقافية فى تلك الأعوام المبكرة من فجر النهضة المصرية ، تعرف نشر الكتب محققة على

---

(١) المادة الخاصة بالمختصرات اعتمدت فيها على الكتاب القيم : « دليل مؤرخ المغرب الاقصى » ، لمؤلفه : عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المرىّ ، أندلسى من أسرة عريقة ، تقطن مدينة فاس ، والكتاب ، وهو فى جزئين ، مرجع لا يستغنى عنه دارس لتاريخ الأندلس والمغرب . وقد لقيت المؤلف فى داره ، رفقة صديقى الدكتور عبد السلام الهراس ، الأستاذ بكلية الآداب فى فاس ، خلال ترددى زائرا ، بحثًا عن المخطوطات ، استكمالا لدراسة بين يدى عن تراث ابن الخطيب ، فلقيت منه ودًا وعونًا ، وذكرنى شخصه وكتابه ، وما عنده من مخطوطات قيد النشر ، بعلماء الأندلس الأجلاء ، ابن الفرضى وابن بشكوال والضبى وغيرهم ، وقد تحدث عن مختصرات النفح فى كتابه « دليل مؤرخ العرب » ، جـ ١ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، الطبعة الثانية ، الدار البيضاء ، ١٩٦٠ .

الطريقة الحديثة ، ومن ثم جاءت هذه الطبعة خالية من التعاليق والهوامش والفهارس .

وطبع الكتاب فى القاهرة للمرة الثانية ، نشرته المطبعة الأزهرية عام ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤ م ، فى أربعة أجزاء أيضاً ، وبهامش الأجزاء الثلاثة الأولى كتاب : « مروج الذهب » للمسعودى . وبهامش الجزء الأخير كتاب : « تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات ، والتراجم والبقاع المباركات » ، للإمام لسخاوى .

وفى الثلاثينيات اعتزمت « دار المأمون » ، وكان يشرف عليها الدكتور أحمد رفاعى ء أن تعيد نشر الكتاب محققاً مضبوطاً ، وعهدت بضبطه والتعليق عليه إلى العالم الجليل الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، أستاذ الأدب العربى فى دار العلوم ، وكان مقدراً له أن يجىء فى اثنين وأربعين جزءاً ، غير أن الدار لم تستطع أن تصدر منه غير تسعة أجزاء ، صدر الجزء الأول منها عام ١٩٣٦ ، فقد اختار الله لجواره صاحب الدار ، ومحقق الكتاب فتوقف العمل فيه . وتمتاز هذه الطبعة بالتصويبات والتعاليق القيمة التى كتبها الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، إلى جانب أنها مضبوطة بالشكل الكامل ، وبآخر كل مجلد فهارس مستوفاة ، فهى أدق ما نشر من كتاب « نفح الطيب » حتى الآن .

وفى عام ١٩٤٩ م ، قامت المكتبة التجارية بالقاهرة بإصدار طبعة جديدة وكاملة من كتاب « لنفح » ، وجاءت فى عشرة أجزاء ، وعهدت بتصحيحها إلى الشيخ محمد محيى الدين ، شيخ كلية اللغة العربية إذ ذاك ، وبرغم أنها خير ما عرفت السوق الأدبية من الطبعات الكاملة ، إلا أن بينها وبين أن يقال إنها محققة علميًّا خطوات واسعة ، فهى لا تضم أية تعاليق أو هوامش ، أو فهارس أو تصويبات ، وكل ما بها تفسيرات لغوية لبعض الكلمات ، وغير ذات قيمة ، لأنها تقف عند السهل ، وتتجاوز الصعب منها . ثم توالت طبعات الكتاب خارج مصر ، نقلا عن هذه الطبعة ، يصورونها أحياناً ، وينقلون عنها أحياناً أخرى ، أوفياء للجهد الذى بُذل فيها فيحتفظون باسم المصحح والناشر ، أو تجاراً بلاذمة فيحذفون اسميهما دون حياء .

وأخيراً قام الدكتور إحسان عباس بطبع الكتاب ، ودفع به تصويباً وإخراجاً

إلى الأمام خطوات ، فاستدرك على سابقيه بعض ما أخطأوا وألحق بالكتاب فهارس منوّعة ، وبذلك جعل الفائدة منه أكثر يسراً .

وطبع الكتاب للمرة الأولى فى أوربا عام ١٨٥٥ - ١٨٦١ ، ونشر فى ليدن بهولندة ، واقتصرت الطبعة الأوربية على القسم الأول من الكتاب ، وهو الخاص بتاريخ الأندلس ، وقام على نشرها أربعة من كبار المستشرقين : دوزى dozy وديجاdugat ، ورايت Wright وكريلkregl وكتب ديجا تعريفاً بصاحب الكتاب باللغة الفرنسية وجاءت هذه الطبعة فى مجلدين ، وأعطى لها الناشرون العنوان التالى : « Analectes sur .l'hostroires des d'Espagne, par Al–Makkari » وشهرت بين الباحثين باللفظ الأول من عنوانها الفرنسى Analectes فظن بعض الباحثين العرب وهماً أن الكتاب قد ترجم إلى اللغة الفرنسية ، وليس بذاك . وتتميز الطبعة الأوربية بكثرة التعليقات و لتصويبات والهوامش المفيدة ، و فهارس كاملة للأعلام ، و الأمكنة والقوافى ، والكتب ، وضبط الأعلام والكلمات غير العادية ، وما بها من هفوات مطبعية قليلة يمكن للقارئ العادى الاستدراك عليها .

وقام المستشرق الإسبانى بشكوال جيانجوس P.Gayangos (١٨٠٩ - ١٨٩٨ م) بترجمة القسم الذى طبع فى أوربا إلى اللغة الإنجليزية ، وجاء فى مجلدين ، ونشره فى لندن عام ١٨٤٠ - ١٨٤٣ م ، واختار له هذا العنوان : « The History of Mohammedan dyasties in Spain » وله تعليقات وهوامش مفيدة للغاية على النص ، وقد أعيد أخيراً طبع هذا الكتاب ثانية بطريقة التصوير ، فى الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

مخطوطات الكتاب كثيرة ، فى مكتبات المشرق والمغرب ، ونص الكتاب المطبوع ينقص قليلا عن بعضها ، ومن ثم فهو فى حاجة ماسة إلى تحقيق علمى ، يقوم عليه علماء متخصصون ، وتتولى نشره هيئة قادرة ، ضبطاً لنصه ، وتيسيراً للفائدة منه ، وإسهاماً فى التقدم الحضارى لبلادنا ، وللإنسانية جمعاء .

○ مختارات من كتاب « النفح » :

أقسام الأندلس[1]

واعلم أن جزيرة الأندلس – أعادها الله للإسلام ! – مشتملة على موسطة ، وشرق ، وغرب .

فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التى كل مدينة منها مملكة مستقلة ، لها أعمال ضخام ، وأقطار متسعة : قرطبة ، وطليطلة ، وجيان ، وغرناطة ، والمريّة ، ومالقة . فمن أعمال قرطبة : إستجةُ وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور وأسطبة ، وبيّانة والبسانة والقصير وغيرها ، ومن أعمال طليطلة ، وادى الحجارة ، وقلعة رباح ، وطلمنكة وغيرها . ومن أعمال جيان : أبدّة وبياسة وقسطلة وغيرها ، ومن أعمال غرناطة : وداى آش ، والمنكب ولوشة وغيرها . ومن أعمال المرية أندرش وغيرها . ومن أعمال مالقة : بلّش والحامة وغيرهما ، وببلّش من الفواكه ما بمالقة ؛ وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها .

(النفح جـ ١ ص ٣٧١ – ٣٧٢)

الحكم المستنصر والثقافة

وقال بعض المؤرخين فى حق الحكم : إنه كان حسن السيرة ، مكرماً للقادمين عليه ، جمع من الكتب مالا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل : إنها كانت أربعمائة ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها . وكان عالماً نبيهاً ، صافى السريرة ، وسمع من قاسم بن أصبغ ، وأحمد بن دُحيم ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى ، وزكريا بن الخطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ،

---

(١) العناوين كلها من وضعى أنا ، ولا صلة للمقرى بها .

وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحى ، باذلا فيها ما أمكن من الأموال ، حتى ضاقت عنها خزائنه . وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجَمّت استفادته ، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيًّا نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله ، وبهذا وصفه ابن الأبار وبأضعافه ، وقال : عجباً لابن الفرضى وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ، ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن .

(النفح جـ ١ ص ٣٧١ - ٣٧٢)

عرس أندلسى

ولما أعرس المستعين بالله ببنت الوزير الأجل أبى بكر بن عبد العزيز . احتفل أبوه المؤتمن فى ذلك احتفالا شهره ، وأبدع فيه إبداعاً راق من حضره وبهره ، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، ما بهر الألباب ، وقطع بذكائه دون معرفتها الأسباب ، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس ، من دان وقاص ، ومطيع وعاص ، فأتوه مسرعين ، ولبوه متبرعين ، وكان مدير تلك الآراء ومدبرها ، ومنشئ مخاطباتها ومحبرها ، الوزير الكاتب أبو الفضل ، وصدرت عنه فى ذلك الوقت كتب ظهر إعجازها وبهر اقتضابها وإيجازها ، فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظاليم أبا عبد الرحمن بن طاهر :

محلك أعزك الله فى طىّ الجوانح ثابت وإن نزحت الدار ، وعيانك فى أنحاء الضلوع باد وإن شحط المزار ، فالنفس فائزة منك بتمثل الخاطر بأوفر الحظ ، والعين نازعة إلى أن تمتّع من لقائك اللحظ ، فلا عائدة أسبغُ برداً ، ولا موهبةٌ أسوغ وردا ، من تفضلك بالخفوف إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه ، ويتصل بمحاضرتك انتظامه ، ولك فضل الإجمال ، بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال ، وأنا أعزك الله على شرف سؤددك حاكم ، وعلى شرح سنائك حائم ، وحسبى ما تتحققه من نزاعى وتشوقى ، وتتيقنه من تطلعى وتتوقى ، وقد تمكن لارتياح باستحكام الثقة ، واعترض الانشراح بارتقاب الصلة ، وأنت وصل الله سعدك

بسماحة شيمك ، وبارع كرمك ، تنشئ للمؤانسة عهداً ، وتورى بالمكارم زنداً ، وتقتضى بالمشاركة شكرًا حافلا وحمداً ، لا زلت مهنئاً بالسعود المقتبلة ، مسوغاً اجتلاء غرر الأمانى المتهللة ، بمنّه ، انتهى .

(النفح جـ ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦)

المعتمد وشاعر وجارية

ومن نوادر الاتفاق أن جارية مشت بين يدى المعتمد ، وعليها قميص لا تكاد تفرّق بيه وبين جسمها ، وذوائبها تخفى آثار مشيها ، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه ، وقال :

عُلِّقتْ جائلة الوشاح غريرة تختال بين أسنة وبواتر

وقال لبعض الخدم : سرْ إلى أبى الوليد البطليوسى المشهور بالنحلى ، وخذه بإجازة هذا البيت ، ولا تفارقه حتى يفرغ منه ، فأجاب النحلى لأول وقوع الرقعة بين يديه :

راقت محاسنها ورق أديمها فتكاد تبصر باطنا من ظاهر
وتمايلت كالغصن فى دعص النقا تلتف فى ورق الشباب الناضر
يندى كماء الورد مسبل شعرها كالطل يسقط من جناح الطائر
تُزهى برونقها وعز جمالها زهو المؤيد بالثناء العاطر
ملك تضاءلت الملوك لقدره وعَنَا له صرف الزمان الجائر
وإذا لمحت جبينه ويمينه أبصرت بدراً فوق بحر زاخر

(النفح جـ ٤ ص ٢١٨)

شيوخ لسان الدين بن الخطيب

ومنهم الفقيه المدرك ، الأستاذ فى فن العربية : أبو على عمر بن عثمان الوانشريشى . قال لسان الدين : حضرت مذاكراته فى مسألة أعوزت عليه ، وطال عنها سؤاله ، وهى قول الشاعر :

الناس أكيسُ من أن يمدحوا رجلا مالم يروْا عنده آثار إحسان

وصورة السؤال : كيف وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما فى الوصف ، إذ أوقع الشاعر « أكيس » بين الناس وبين أن يمدحوا ، وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ولا يوصف بذلك ، انتهى .

قلت : الإشكال مشهور ، والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر ، وقد أشار إليه أبو حيان فى « الارتشاف » وجماعة آخرون فى قول بعض المؤلفين لصاحب التلخيص : « أكثر من أن تحصى » . ولولا السآمة لذكرتُ ما قيل فى ذلك ، وخلاصة ما قالوه أن فى الكلام تقديراً ، والله أعلم .

(النفح ، جـ ٧ ص ٢٧٢)